المحاضرة الثانية: البنية الاجتماعية وأثرها في الأدب العباسي

مدخل:

تطورت الحياة الاجتماعية تدريجياً نتيجة التفاعل المستمر الذي انبثق عن الإسلام وروحه وتعاليمه هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بعض المؤثرات الأجنبية التي دخلت إلى المجتمع الإسلامي من الحضارات التي استوعبتها الدولة الإسلامية.

لقد ازداد هذا التطور الذي مرّ به المجتمع الإسلامي كثيراً في العصر العباسي الأول نتيجة لازدياد وتفاعل جميع العناصر المختلفة من العرب وغير العرب مع كثرة المال والابتعاد تدريجياً عن العهد الأول للإسلام من ناحية ، ومن ناحية أخرى بلغت الحضارة الإسلامية مرحلة النضج وذروة الانتعاش سواء في الجوانب الفكرية والاقتصادية أو الاجتماعية وغيرها ،واهتم الخلفاء بالأدباء والشعراء والعلماء بما أجزلوا من النوال والعطاء ، وأصبحت الدولة الإسلامية في هذا العصر مركز العالم المعروف والذي أدى الى انتعاش هذه الدولة هو انتشار الأمن بين ربوعها مع اتساعها إلا أنها غدت مجمعاً لكثير من الأجناس والعناصر والطوائف الدينية وغير الدينية وأدى هذا الخليط البشري الكبير المتنوع الأصول والدماء واللغات والعادات والتقاليد والمذاهب إلى إكساب الحياة الاجتماعية لوناً خاصاً فريداً داخل بوتقة الحضارة الإسلامية .

وقد ضم المجتمع في العصر العباسي الفئات الاجتماعية الآتية:

1- العلماء:

كان العراق مركزاً للعلم والعلماء في العصر العباسي الأول وحظي العلماء بمنزلة رفيعة لدى رجال الدولة من الخلفاء والأمراء والولاة ولدى الطبقة العامة ، وبمختلف اختصاصاتهم سواء أكانوا فقهاء أم أدباء ، أم مؤرخين أم لغويين ، فقد كان للفقهاء دور كبير خاصة في بداية الدولة العباسية وهي فترة اضطراب لان كثيراً من الناس لم يكونوا قد استوعبوا التغيير الجديد ، فمتى تزال هذه الإشكالات رسم للفقهاء دورٌ توجيهيٌ مهم من خلال قدرتهم على النصح وهذا سوف يؤدي الى إقامة قيم جديدة وإزالة قيم قديمة وبأقل الخسائر وهذا أعطى مساحة جديدة من النشاط للفقهاء لممارسة دورهم وفعاليتهم الاجتماعية .

ومن أبرز الخلفاء العباسيين الذين قربوا هذه الفئة هو الخليفة المأمون الذي ازدهرت في عصره الحركة العلمية وحركة الترجمة والتأليف وهو أول من أسس بيت الحكمة .

2- التجار:

ضمت هذه الفئة المسلمين وأهل الذمة واقع نفوذ هؤلاء في العصر العباسي نتيجة ازدياد الترف والبذخ لدى رجال الدولة والأغنياء من الناس وظهرت الأسواق الكبيرة لتلبية حاجة هؤلاء مثل سوق الكرخ ، وكان يعيش هؤلاء بمستوى عالٍ مقارنة بالفئات الأخرى في المجتمع ، حيث يمكن تصور حياة هؤلاء

وقد قامت على الترف والبذخ والإسراف في الإنفاق وما يترتب عن ذلك من مشكلات اجتماعية واقتصادية منها على سبيل المثال ظهور التحاسد بين الأغنياء على ثرواتهم أو بين الفقراء والمعدمين من جهة والأغنياء من جهة أخرى وقد يقود البذخ الى الوقوع في المعاصي والآثام من قبيل تعاطي الخمر أو غيرها من مظاهر التحلل الخلقي لأن الغنى والثراء يفتح أمام الإنسان أبواباً واسعة للفتنة .

3- أرباب الحرف والصناعات

ضمت هذه الفئة أصحاب المكاسب من باعة وحرفيين وتدل الإشارات إلى أن معظم سكان بغداد كانوا ممن يعمل في الخدمة الحكومية مدنيين كانوا أم عسكريين فضلاً عن الصناع والتجار .

وقد ضم المجتمع في العصر العباسي الأول ثلاث طبقات سياسية متدرجة، الخليفة في القمة، الخاصة في الوسط وتشمل الأمراء وكبار التجار، العامة وهم بقية الناس وعامة العسكر ، وتحكم هذه الطبقات شبكة من العلاقات الثابتة في إطار التحول الذي شهده العصر العباسي الأول ولا سيما بعد الازدهار الحضاري وبروز تيار أهل السنة والجماعة وتواري الخوارج تدريجياً عن المسرح السياسي وأصبحت الخلافة رمزاً لوحدة المسلمين ووحدة اجتماعهم السياسي والثقافي والحضاري .

وكانت العامة تشكل مختلف الأجناس أغلبهم من المسلمين والباقي من أهل الذمة، وكان لها تأثيرٌ كبير على حياة المجتمع لكونها تشكل السواد الأعظم منه فغالباً ما كانت تثير الاضطرابات في المجتمع على رجال السلطة.

وقد كانت الأوضاع المعيشية للعامة سيئة الأمر الذي أدّى إلى ظهور فئات مختلفة مثل اللصوص ثم المكدون والمتسولون ،وقد شكل المحتالون والشطار فئة أخرى من العامة نتيجة للأوضاع السيئة في مستواهم المعيشي حيث أفرزت هذه الظروف هذه الفئة التي غالباً ما يرى الباحثون أنها ثورية أنتجتها ظروف طبقية معينة لها خصائص أخلاقية نبيلة .

يرجع ظهور هذه الجماعة إلى النصف الأول من القرن الثاني للهجرة وكان السبب في ظهور هذه الفئة وتفاقم نشاطها ذلك التمايز الطبقي الذي ألقى ظلاله على بنية المجتمع البغدادي .

وقد عاشت هذه الفئة من عامة الناس في المجتمع العباسي أوضاعا غاية في البؤس مأواهم الحمامات والمساجد والطرقات ، وعبرت ملابسهم عن بؤس أشد ، وبهذا فان طعامهم لم يكن أفضل من مظهرهم الأمر الذي دفعهم الى القتل أحيانا ، وعندما تكون الدولة ضعيفة فإن النهب يكون سبيلهم الأفضل ، وفي أوقات الفتن والاضطرابات السياسية وعدم الاستقرار الأمني يصبح هؤلاء أسياد المدينة فيبتزون أهلها بكل ما يخطر على البال.

ويلاحظ عن تلك الفترة طغيان مظاهر المجون ونزعة اللهو كانت أكثر حدة بين المترفين ومن حولهم فالفروق الاجتماعية بين طبقات المجتمع لم تكن فروقاً طفيفة حتى انه كان في مقابل الترف والمجون في بعض طوائف وفئات الطبقتين العليا والوسطى حياة يفشو فيها الفقر والبؤس بين فئات عامة الشعب من

الفقراء والمعوزين مما أتاح الفرصة أمام طوائف النساك والزهاد للوعظ فكان منهم من اتجه إلى الخلفاء لوعظهم واتخذ عدد منهم حلقات في المساجد ، ومنهم من كان يطوف في الأسواق للوعظ وكانت غاية هؤلاء الزهاد والنساك ذم الدنيا وكشف خداع مظاهرها وكبح جماح شهوة النفس وذم التكالب على جمع المال، وكانوا يستخلصون وشائج هذه الغاية من روح الدين الحنيف ، وقد أثرت هذه الروح على طائفة من الشعراء فكان الزهد ورفض الدنيا ومتاعها موضوعاً رئيساً لأشعارهم مثل أبي العتاهية"ت211هـ"

أثر الحياة الاجتماعية في الشعر والنثر

أولا في الشعر:

شهدت بواكير العصر العباسي نبوغ عدد وفير من الشعراء المبدعين الذين اتسمت أشعارهم بملامح الجدة وانطوت على رواء الحداثة، وبدا جلياً أن الغلبة لم تعد لمنازع القديم ونماذجه الموروثة، وهكذا أخذت الأنظار تتجه إلى بشار بن برد و أبي نواس و أبي العتاهية و مسلم بن الوليد و الحسين ابن الضحاك و علي بن الجهم وأمثالهم ممن فاضت قرائحهم بشعر جديد بات مهوى أفئدة الجيل ثم توالى ظهور الشعراء النوابغ في العصر العباسي المديد، ومنهم أبو تمام و البحتري و ابن الرومي و ابن المعتز و دعبل .ومن بعدهم أبو الطيب المتنبي و أبو فراس الحمداني و الشريف الرضي و أبو العلاء المعري وسواهم، وارتقت أساليب التعبير وعرف الشعر العربي أزهى عهوده.

أغراض الشعر العباسي:

حرص شعراء العصر العباسي ونقاده بوجه عام على أن يدور شعرهم في فلك الأغراض الموروثة، وأن تنتسج أغراضه على منوال الفحول المتقدمين. فحافظ المديح على منزلته السالفة تبعاً لارتباطه الوثيق ببلاط الخلفاء والملوك، ومجالس الأمراء والولاة، ولكونه السبيل الأول للحظوة عند أولي الأمر، والطريق الأقصر لبلوغ الشهرة المنشودة.

1- المديح

اقترن شعر المديح بالموقف السياسي في العصر الأموي، حين كان للخليفة شعراؤه الذين يمدحونه وينالون عطاياه، واستمر الحال في ظل الحكم العباسي، فاصطنع خلفاؤه شعراء موالين لهم لزموهم في حلهم وترحالهم، وخصوهم بمدائحهم وذادوا عن حقهم في حكم المسلمين. وقد ظهر في عهد الخلفاء الأوائل عدد وفير من هؤلاء الشعراء مثل بشار و أبي العتاهية و السيد الحميري و أبي نواس و الفضل الرقاشي و سلم الخاسر و أبي دلامة و مروان بن أبي حفصة و مطيع بن إياس و أشجع السلمي و منصور النمري .وقد فاق الخليفة المهدي سلفيه في تقريب الشعراء وإكرامهم، فأكثروا فيه القول وغالوا في الثناء.

ومضى الخليفة هارون الرشيد بعد ذلك إلى مدى أبعد في رعاية الشعر وتقريب الشعراء طوال حكمه القوي الزاهر الذي دام اثنتين وعشرين سنة. ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء، ومن مداحه ابن مناذر و أبو الشيص و مروان بن أبي حفصة و العماني و مسلم ابن

الوليد وربيعة الرقي.. فضلاً عن أبي العتاهية وأبي نواس وسلم الخاسر، وأصبح لإطراء الممدوح حيز أكبر لدى شعراء هذا العصر.

وقد تجلى ذلك لدى الشاعر أبي تمام) ت231هـ/846م) الذي ارتفع ببعض قصائده إلى مستوى يقارب الملاحم، وآخى فيها بين شعر المديح وشعر الحرب، مقدماً بذلك للأدب العربي نموذجاً جديداً متطوراً من الشعر الحماسي الأصيل.

وعلى هذا المنوال مضى أبو الطيب المتنبي) ت354هـ/965م) بعد قرون من الزمان، مشيداً بانتصارات سيف الدولة الحاسمة ومعاركه المظفرة في قتال دولة الروم المتاخمة.

غير أن موضوع المديح لم يبرأ من بعض العيوب التي شابتها في هذا العصر، وفي مقدمتها المبالغة والتهويل، فلم يعد ما قاله الأوائل مثلاً في صدد شعر زهير بن أبي سلمى من أنه «لم يكن يمدح الرجل إلا بما فيه» منحى مطلقاً، بل أسرف الشعراء على أنفسهم في ذلك، وغالوا أحياناً في إسباغ الصفات الخارقة على ممدوحيهم.

ومن هذا القبيل قول أبي نواس في الخليفة الأمين:

وأخفْت أهـل الشـِّرك حتى إنــه   لتخافُـك النُّطـفُ التي لـمْ تُخلق

2- **الهجاء:**

أما الهجاء، وهو الغرض الذي يقابل عادة غرض المديح، فقد انعطف في مساره عما كان عليه في العصر الأموي، فخفتت فيه نزعة تحقير الخصم بسبب وضاعة أصله ونسبه، أو خمول مكانة أبيه وجده، أو ضآلة شأن عشيرته وقبيلته. إذ لم تعد للأنساب تلك الأهمية البالغة التي كانت لها في سالف العهد، بعد همود حدة العصبيات القبلية وانصهار أكثر القبائل في بوتقة المجتمع المتحضر الحديث. فتركز الهجاء أو كاد، في إبراز المعايب الشخصية اللاصقة بذات المهجو وما تنطوي عليه نفسه من مثالب. وهذا المنحى أدخل في رحاب التصوير والفن، وأبعد عن مجال القذف والشتم.

وكثيراً ما كانت المهاجاة تستعر بين الشعراء أنفسهم فيكثر في قصائدهم ذكر المثالب والمعايب، وقد يتجاوزون الحدود إلى التحقير والتسفيه. وقد عرف بذلك بشار بن برد وأبو نواس وأبو عيينة المهلبي وابن الرومي ودعبل الخزاعي وعبد الصمد بن المعذل، حتى إن الأمر بلغ ببعضهم حد التعرض للخلفاء أنفسهم، شأن الشاعر الهجاء دعبل الخزاعي (ت246هـ/860م) الذي لم يتورع عن هجاء الرشيد و المأمون و المعتصم و الواثق .وقد قرن الخليفتين الأخيرين معاً في قوله:

خليفة مــات لـم يحزن له أحـد   وآخر قام لم يفرح به أحـد

كذلك تنوعت أنماط الهجاء تبعاً لتعدد أوجه الحياة في هذا المجتمع العباسي المتحضر .فابن الرومي) ت283هـ/896م) الذي عاش في عصر اكتظ بالجواري والقيان مثل جلنار وبستاق وبدعة

وشاجي ودريرة وغناء وظلوم ووحيد وغيرهن من مطربات مجالس الولاة والوزراء، تعرض في شعره لهؤلاء وغيرهن كما تعرض معاصره البحتري وسواه، وكان طبيعياً أن يقرظ بعضهن إعجاباً بأصواتهن وأن يهجو أخريات لم يجد في غنائهن ما يروقه.

3- الرثاء:

أما غرض الرثاء فمن الطبيعي أن تظل له منزلته السامية في النفوس لانبثاقه من عاطفة الحزن الواري في كل زمان ومكان. غير أن فن الرثاء ارتقى في هذا العصر، واكتسب غنى وعمقاً، بفضل شعراء كبار أبدعوا فيه وفي سائر أغراض الشعر، وفي طليعة شعراء الرثاء أبو تمام الذي قيل عنه «مداحة نواحة»، ومن بعده ابن الرومي الذي عرف برثاء أولاده.

كذلك افتن الشعراء في هذا الغرض تبعاً لتشابك العلاقات الاجتماعية في ذلك العصر، وتوطد صلاتهم مع أولي الأمر. إذ لم يمت خليفة ولا وزير، ولا قائد ولا عظيم، إلا رثوه رثاء حاراً وأبّنوه تأبيناً رائعاً، مبرزين في قصائدهم كل ما كان يتحلى به الفقيد في حياته من مناقب وما كان له من فضل.

وكم ألمت بهذا العصر العباسي المديد أحداث جائحة وفتن طاغية وجدت لها في النفوس صدى أليماً وتجلت على ألسنة الشعراء مراثي دامعة. وحدث أن اجتاح الزنج البصرة في فتنة هوجاء حين زحفوا إليها من ظاهر المدينة، فاستباحوها وأعملوا فيها يد التخريب والتنكيل. وراع هذا النبأ الفاجع ابن الرومي فقال في رثاء المدينة المنكوبة قصيدة تعد من أروع الشعر مطلعها:

ذادَ عــن مُقلتي لذيــذُ المنـــام شـَــغلها عنه بالدُّموع السِّـجام

ولم يكن هذا النمط من رثاء المدن معهوداً في الشعر العربي،ولكن أحوال ذلك العصر المتفجر اقتضت مواكبة الشعر لها. ولعل هذه القصيدة باكورة رثاء الممالك الذي أخذ في الظهور فيما بعد ولاسيما إثر سقوط بغداد بيد التتار القساة، وإثر تساقط دويلات المسلمين في الأندلس بيد الفرنجة.

وقد تستدعي حقيقة الموت من الشاعر أن يتأمل في طبيعة الحياة وحال الدنيا،فيكون له من ذلك نظرات وآراء،ولاسيما بعد أن تشبع الشعراء بأفكار ثقافات أغنت معارفهم وعقولهم، ومن هذا القبيل كثير من شعر أبي العتاهية في الوجود والعدم، والحياة والموت، والبقاء والفناء.

4- الغزل:

وقد اكتسب الغزل في العصر العباسي غنى ومضاء لارتباطه بعاطفة الحب الغلابة في النفس الإنسانية. وأقبل الشعراء إقبالاً كبيراً على النظم فيه، فكثر كثرة بالغة وازدهر ازدهاراً واسعاً. غير أن الاتجاهين اللذين غلبا في العصر الأموي وهما الغزل العفيف والغزل الصريح لم يسيرا في العصر العباسي على ذلك النحو المتوازن. فقد أخذ الغزل العفيف في التضاؤل، في عصر تكاثرت فيه النحل والآراء، واحتدمت المنازع والأهواء، وقلما عرف المجتمع العباسي طائفة من شعراء الحب النقي الطاهر كالذين عرفتهم من

قبل بوادي الجزيرة وربوع الحجاز، مثل قيس بن الملوح و جميل بن معمر و عروة بن أذينة . ولعل العباس بن الأحنف وقلة من أمثاله الشعراء الذين تعذبوا في عشقهم يمثلون بقية ذلك المنحى، وإن لم يبلغوا فيه شأو العذريين قبلهم. فالعباس بن الأحنف (ت192هـ/808م) قصر شعره، أو كاد، على التغني بعاطفته ومشاعره.

و لعلي بن الجهم غزل كثير أجاد فيه تصوير لواعج حبه. وقد برع في مقدماته الغزلية الرقيقة ولاسيما ما كان يستهل به مدائحه للخلفاء. ومن ذائع غزله في صدد مديحه للمتوكل:

عيون المها بين الرصافة والجسر... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ولبشار بن برد شعر كثير في الغزل العفيف والماجن نختار منه:

وذات دل كان البدر صورتها...باتت تغني عميد القلب سكرانا

إن العيون التي في طرفها حور...قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فقلت أحسنت يا سؤلي ويا أملي...فأسمعيني جزاك الله إحسانا

وقوله: يا قَومِ أَذني لِبَعضِ الحَيِّ عاشِقَةٌ...وَالأُذنُ تَعشَقُ قَبلَ العَينِ أَحيانا

قالوا بِمَن لا تَرى تَهذي فَقُلتُ لَهُم....الأُذنُ كَالعَينِ تُؤتي القَلبَ ما كانا

هَل مِن دَواءٍ لِمَشغُوفٍ بِجارِيَةٍ....يَلقَى بِلُقيانِها رَوحاً وَرَيحانا

أغراض أخرى:

لعل أبرز انعطاف طرأ على الشعر العربي في العصر العباسي هو انبثاق غرضين آخرين أضيفا إلى سائر الأغراض المعهودة في الشعر العربي، وهما غرض اللهو والمجون و الزندقة، وغرض الزهد و التصوّف.ومع أن لهذين الغرضين جذوراً في الشعر العربي القديم، إلا أنهما بلغا في هذا العصر المدى من التطرف. لقد انطوى المجتمع الإسلامي في العصر العباسي على كثير من التعقيد، وعرض له كثير من الاختلال. وكان ذلك كله بسبب التبدل الشديد الذي أصاب الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية. إذ التفت الناس إلى حياة الدعة واللهو نتيجة انقضاء مرحلة الجهاد والفتح، فازدهرت التجارة وحركة القوافل، وتكاثر المتمولون وتركزت الثروة في جيوب فئة من الأغنياء. ونشطت تبعاً لذلك حركة المتاجرة بالرقيق، وانتشرت أسواق النخاسة، وشاع اقتناء الجواري والغلمان، بعد أن انصبت عناصر أعجمية كثيرة على الحياة العربية من فرس و روم و ترك، حاملة معها نزعاتها ونزواتها،وعاداتها وأهواءها، فكثرت عناصر الموالي، وتزعزعت القيم،وضعفت الأعراف والتقاليد. وهكذا برزت الزندقة لتغدو مظهراً من مظاهر المروق من الدين وفساد العقيدة، كما برز المجون مظهراً آخر من مظاهر

التحلل في الأخلاق والسلوك، والاستهتار بالقيم والأعراف. وقد تطرّف الشعراء في ذلك،من أمثال بشار و أبي نواس و مطيع بن إياس، حين أطلقوا لأنفسهم عنان القول، وخرجوا عن نطاق الحشمة والوقار. ولم يفتقد الأدب ذلك الحب العذري أو العفيف، وما اتسمت به من ملامح الطهر والنقاء، بل ابتلي بنمط شاذ مستحدث من الشعر الهابط في مضمونه لم يعهده العرب من قبل، وهو التغزل بالمذكر. كما لم يعد الكثيرون يجدون حرجاً في شرب الخمرة وارتكاب المعاصي متحللين من كل خلق ودين.

وثمة نزوات كثيرة اشتهر بها أبو نواس وتجلت في أقواله وأفعاله، إنه يخاطب ساقية في الحانة بكلمات طافحة بالاستهتار والتحدي:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسـقني سراً إذا أمـكن الجهر

حتى إن بعضهم جهر بالزندقة ومنهم بشار ابن برد و حماد عجرد و الحسين بن الضحاك و صالح بن عبد القدوس وسواهم، وقد عرف أكثرهم بالمجون والتهتك. والملاحظ أن هذه النزعات المتطرفة قد برزت في مدن العراق كالبصرة و الكوفة و بغداد نتيجة انصباب فئات كبيرة من الأعاجم على سكان تلك الحواضر، حاملة معها نحلها الغريبة، من بوذية و زرادشتية و مانوية وغير ذلك.

وكان من الطبيعي داخل ذلك المجتمع الحافل الذي كان يضطرب بتيارات شتى أن تتعدد النزعات، وتتعارض الاتجاهات. ولم يكن بوسع مجتمع عميق الجذور ورث القيم العربية وتشبع بالروح الإسلامية أن يتقبل الزيغ والانحراف، ويرتضي الطيش والمروق. لقد هال الأتقياء وذوي الغيرة على الدين والأخلاق ما تعرض له ذلك الجيل من غزو لأفكاره ومعتقداته، وفساد في قيمه وسجاياه. ورأوا أن خير سبيل إلى النجاة من تلك الشرور العودة إلى جوهر الدين والتمسك بحبل الله. وهكذا اشتد تيار الزهد والتقشف في مقابل نزوع الآخرين إلى المجون والتحلل. وقد غلا بعض هؤلاء في التضييق على أنفسهم غلو أولئك في تحللهم واستهتارهم. فدأبوا على الوعظ والتعبد، وحضوا على حياة النسك ونبذ حطام الدنيا.

ويعد الشاعر أبو العتاهية الذي عاش في صدر العصر العباسي ممثل تيار الزهد في الشعر العربي، حين أكثر من نظم قصائده الزهديات وبرع فيها، حتى إنه جعل من ذلك الشعر غرضاً جديداً انضم إلى سائر الأغراض المعهودة من شعره في الزهد:

أَلا لِلَّهِ أَنتَ مَتى تَتوبُ ... وَقَد صَبَغَت ذَوائِبَكَ الخُطوبُ
كَأَنَّكَ لَستَ تَعلَمُ أَيُّ حَثٍّ ... يَحُثُّ بِكَ الشُروقُ وَلا الغُروبُ
وَكَيفَ تُريدُ أَن تُدعى حَكيماً ... وَأَنتَ لِكُلِّ ما تَهوى رَكوبُ
وَما تَعمى العُيونُ عَنِ الخَطايا ... وَلَكِن إِنَّما تَعمى القُلوبُ
أَراكَ تَغيبُ ثُمَّ تَأوبُ يَوماً ... وَيوشِكُ أَن تَغيبَ وَلا تَأوبُ

وقد نظم في غرض الزهد شعراء كثيرون، منهم سفيان بن عيينة و عبد الله بن المبارك ومحمود الوراق و مالك بن دينار، إضافة إلى أبي نواس في أواخر حياته.

ثم أخذ تيار الزهد يخرج عن بساطته ويزداد اتساعاً وتعقيداً، فلم يعد أعلامه يكتفون بالوعظ والتذكير بالموت، والإكثار من ذكر القيامة والنار، بل راحوا يرتكزون إلى أصول فكرية وفلسفية، انبثق منها في نهاية الأمر مذهب التصوف .وقد تجلى مفهوم الحب الإلهي في عصر مبكر لدى رابعة العدوية (ت135هـ أو 185هـ) الزاهدة العابدة، التي يقال أنها استعملت لأول مرة لفظة الحب للتعبير عن إقبالها على الله، وإعراضها عن كل ما سواه.

وهذا الحب الإلهي هو المحور الذي دار حوله اهتمام المتصوفة لأنه الحب الأمثل الذي يفنون فيه فناء يحقق لهم السعادة والاطمئنان.

ثم أخذ الفكر الصوفي ينطوي على كثير من التعقيد بفعل مؤثرات دخيلة على الإسلام من بوذية وإغريقية و مسيحية .وكان أن ظهر في السنين العباسية المتأخرة عدد من الشعراء الأعلام في التصوف مثل الحسين بن منصور الحلاج) ت309هـ/921م) الذي تم فيه تنفيذ حكم القتل، وكان يعتقد باتحاد الناسوت، أي الروح الإنساني، باللاهوت، أي الروح الإلهي. كما ظهر في أواخر العصر العباسي عدد من كبار المتصوفة الذين نظموا أشعاراً كثيرة عرضوا فيها مذهبهم بأسلوب رامز يعتمد تعابير العشاق وألفاظ المحبين، مثل ابن الفارض) ت632هـ/1234م) الذي يقول في إحدى قصائد ديوانه الصغير الشهير متغنياً فيها بخمرة الوحدة الإلهية:

شـربنا على ذكر الحبيب مدامــة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقد أفاض في عرض مذهبه في المجاهدة ونظرته في وحدة الوجود ضمن مطولة شعرية بلغت سبعمئة وستين بيتاً، وتعرف بنظم السلوك.

ثانيا النثر:

1- الخطابة:

نشطت الخطابة السياسية في مطلع هذا العصر، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها في بيان حق بني العباس في الخلافة. وكان من خطباء هذا العصر خلفاؤه الأوائل مثل أبي العباس السفاح و أبي جعفر المنصور و المهدي و الرشيد، وآل بيتهم ومنهم داوود بن علي وأخوته عبد الله وسليمان وصالح وأبناؤهم. وقد وصفهم الجاحظ[4] بأنهم «لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلالة... مع البيان العجيب والغور البعيد. وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار.«

وخطبهم، لا تكاد تختلف من حيث شكلها ومضمونها عن الخطابة في صدر الإسلام و العصر الأموي، إذ غدا من مقتضيات الحياة السياسية العربية أن يشهر اللسان في مثل هذه الأحوال إلى جانب السلاح.

ولما تم الأمر لبني العباس وقضوا على أعدائهم الأمويين، ثم على شركائهم الشيعة، خفتت حدة القول، ولم يعد ثمة ما يحفز الخطباء على التصدي للناس، واصطناع الترهيب والترغيب.

كذلك ضعفت الخطابة في الجيوش بعد أن انقضى عهد الفتوح. وصار الكثير من الجنود من الجيش الإسلامي نفسه من الأعاجم، فرساً أو تركاً، لا يفقهون العربية ولا يتأثرون ببلاغتها. ولم يعد للخطابة في النفوس بوجه عام ما كان لها من منزلة في عصر الراشدين والأمويين، حين كانت الفن العربي الأصيل الذي كان قوامه البديهية والارتجال. وهكذا انحسرت الخطابة في ضحى العصر العباسي، وكاد شأنها يقتصر على فئة الوعاظ وأئمة المساجد، ولم تعد تتجاوز في غالب الأحوال نمط الخطابة الدينية.

2- الرسالة:

وكان من الطبيعي تبعاً لذلك، ولاسيما في هذا الطور المتحضر، أن تحل الكتابة، مع توالي الأيام محل الخطابة، وأن يقوم كتاب الدواوين ومدبجو الرسائل بتحبير القراطيس وإعداد التقارير. ثم تشعبت أشكال التعبير، لتغدو أقدر على استيعاب مناحي الفكر المتعددة ومنازع الحياة المتجددة .

كانت الترجمة إحدى ضرورات الحركة العلمية التي نشطت بفضل فئة نابهة من الأعاجم يتألف معظمها من السريان والفرس. وبذلك انصبت في بحيرة الثقافة العربية جداول شتى، مختلفة المذاق من تلك الثقافات الوافدة. وعادت حركة النقل بالخير على لغة العرب الأصيلة وأدت إلى ازدهار أنماط من النثر، كالنثر الفني والأدبي،والنثر العلمي، والنثر الفلسفي. وغدت الكتابة وعاء لعلوم العصر الكثيرة ومعارفه الغزيرة، بعد أن دخل العرب عوالم التدوين والتأليف والترجمة من أوسع الأبواب. وليس الغرض هنا التوقف عند الكتابة الديوانية التي شاع أمرها في الأوساط الرسمية والإدارية، مما يتصل بشؤون البلاغات والبيانات، والمواثيق والصكوك، والتولية والغزل.

أما النثر الأدبي الحقيقي فلم يتوطد إلا بفضل الكاتب المنشئ عبد الله بن المقفع" ت142هـ" بعد أن تسلم شعلة هذا الفن من صديقه الناثر الرائد عبد الحميد الكاتب، الذي لقي مصرعه في إثر الثورة العباسية، ولم يقيض له المضي إلى شوط أبعد في هذا المضمار. فقد تجلى فن النثر في أدب الرسائل أول الأمر في نهايات العصر الأموي وبدايات العصر العباسي، فكتب ابن المقفع رسائله على غرار رسائل عبد الحميد، وهي مقالات طوال تتناول موضوعاً معيناً، لعل أشهرها «رسالة الصحابة» أي في آداب الصحبة والمعاشرة والسلوك، ولاسيما مصاحبة السلطان والولاة، والحكام والقادة، والأعوان والبطانة. ثم ما للرعية والجند من حقوق يجب عطاؤها، وما عليهم من واجبات ينبغي أداؤها، فرسالة الصحابة، وهي بمنزلة خطاب مفتوح إلى الخليفة، ذات صبغة سياسية ـ إدارية، تهتم بشؤون الحكم وسياسة الدولة.

إن فن الرسالة لا يختلف في جوهره عن فن الخطابة إلا من حيث الحجم، فللخطبة حيز محدود من الزمان على حين قد تطول الرسالة لتقرأ بأناة وتمعن. فهما نمطان أو لونان من النثر الأدبي، فقد درج العرب على أن يكتبوا الرسالة في المقصد الكبير، ويلقوا الخطبة في الحدث الجليل. ويمكن القول مع ذلك أن الكتابة انتسجت على منوال الخطابة، وإنه على طريق الخطباء مشى الكتاب، حتى غدت الكتابة آخر الأمر الوريث الشرعي للخطابة.

وما لبث ابن المقفع أن خطا خطوة أخرى في مضمار النثر الأدبي الوليد حين دبج كتابيه الصغيرين " الأدب الصغير"، و«الأدب الكبير»، وهما في واقع الأمر أشبه برسالتين مطولتين، أو هما بتعبير آخر بمنزلة جسر بين الرسالة المحدودة والكتاب النثري الشامل.

أما كتاب "كليلة ودمنة" الذي نقله ابن المقفع إلى العربية من لغة قومه البهلوية، فيعد لبنة أساسية وكبيرة في صرح النثر العربي الزاهر. وهو مثال بارز على ظاهرة تمازج الثقافات ولاسيما بين الآداب الهندية و الفارسية و العربية .ومع أن الكتاب أعجمي الأصول وليس من إبداع العرب في معظمه، فقد انتزع إعجاب الأدباء والنقاد، برغم انتمائه إلى وثنية الهنود و مانوية الفرس. فأقاصيص كليلة ودمنة تضع قارئها في جو محبب، تتعانق فيه الحقيقة والخيال، في تآلف معجب شائق،حافل بالطرافة والغرابة، حيث الحيوانات الناطقة تملأ ربوعه وجنباته، بالحركة والحياة. ومن خلال الحديث بين كليلة وأخيه دمنة ينعقد الحوار المعهود، وتتوالى الأقاصيص واحدة في إثر واحدة، آخذاً بعضها برقاب بعض: فالحيوانات هي وحدها الشخصيات التي تدور من حولها الأحداث، ولكن هذه الحيوانات في الوقت نفسه كائنات تمثل البشر، وهو نماذج من الناس تحس وتفكر، وتحب وتبغض، وتنجح وتخفق.. إنها في حقيقة الأمر رموز للناس في خيرهم وشرهم، وقوتهم وضعفهم، وفطنتهم وغبائهم، وسعادتهم وشقائهم.

3- المقامات:

وفي الوقت نفسه إبَّان القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي انبثق في الحياة الأدبية نمط نثري مستحدث عرف بالمقامات، وهو نثر قصصي يغلب عليه التأنق اللفظي والتزيين البديعي ويجنح أحياناً في مضمونه إلى السخرية والدعابة، ويمكن القول إن هذا الفن ولد كاملاً بفضل موهبة الناثر القدير بديع الزمان الهمذاني "ت398هـ" فهو في مقامته المسماة «البغدادية» يسوق الحكاية على لسان الراوية الموهوم الذي اخترع شخصيته وأطلق عليه اسم عيسى بن هشام وقد يسند إليه أحياناً دور البطل بالإضافة إلى ذلك كما في مقامته البغدادية.

ومثل هذا النمط الشائق من فنون القول استهوى شباب ذلك الجيل، إذ وجدوا فيه مذاقاً طريفاً ينطوي على المرح والهزل، ويبتعد عن الرصانة والجهد. كما وجدوا في أسلوبه صياغة جميلة ترضي نزوعهم إلى التأنق اللفظي والزخرفة الأسلوبية. وهذا ما حفز ناثراً بارزاً آخر بعد ذلك على المضي قدماً في ممارسة هذا الفن النثري وهو الحريري "ت516هـ" ولكنه تمادى في اصطياد السجع وسائر المحسنات البديعية إلى حد التصنع والتكلف. كما أن مقاماته قصرت عن المقامات السالفة، لأن منشئها لم يكن يضارع بديع الزمان في موهبته، فأتت مقاماته قليلة الرونق أشبه بمتون لغوية مسجوعة.

للاطلاع والاستزادة أكثر ينظر**:**

1- عزالدين اسماعيل :في الشعر العباسي الرؤية والفن

2- عزالدين اسماعيل :في الأدب العباسي الرؤية والفن